فصل من كتاب :

أنا وسارتر والحياة ...

بقلم : سيمون ده بوفوار
ترجمة عايدة مطرجي ادريس

صدر اخيرا في باريس كتاب رائع للاديبة العالمية سيمون دوبوفوار تتحدث فيه عن علاقتها الفكرية والعاطفية بجان بول سارتر . وتنشر « الاداب » فيما يلي فصلا من هذا الكتاب الذي يصدر عن دار الاداب قريبا بعنوان « انا وسارتر والحياة » .

كان اول ما اسكرني ، حين رجعت الى باريس في ايلول عام ١٩٢٩ ، حريتي ..

وحين عاد سارتر الى باريس ، في منتصف تشرين الاول ، بدأت حقا حياتي الجديدة .

وزارني سارتر في مقاطعة « ليموزان » . وكان ينزل في فندق بول دور ، في سان جرمان لي بيل . ولكي نتفادى الاقاويل كنا نلتقي في الريف على مسافة بعيدة من السوق . وبأي جذل كنت اطوي في الصباح البراري التي كانت ما تزال رطبة والتي سبق لي غالبا ان اجتررت فيها وحدتي بمرارة ! وكنا نجلس على العشب نتحادث. وما كنت لاتصور ، في اليوم الاول ، ان هذا الانشغال بعيدا عن باريس وعن رفاقنا كان يمكن ان يكفينا .. وكنت قد اقترحت بان«نحمل كتبنا ونقرأ ». فحنق سارتر . وكان قد كنس ايضا جميع مشاريع نزهاتي . وكانت خضرة تلك المراعي تثير اعصابه ، فلم يكن يقبلها الا شرط ان ينساها . فليكن . كان حسبي ان اشجع حتى تكف الكلمة عن ان تخيفني . فاستأنفنا الحديث المبدوء في باريس . وما لبثت ان ادركت ان الزمن سيبدو لي اقصر مما ينبغي حتى ولو استمر هذا الحديث الى نهاية العالم . كان الصباح يبزغ وكان جرس الفطور يدق. وكنت اذهب لاتناول طعامي عند العائلة . وكان سارتر يأكل خبزا معسلا او جبنة كانت ابنة عمي مادلين تضعها بصورة خفية في برج مهجور للحمام بالقرب من « البيت الاسفل » . كانت تحب الاشياء الروائية . وكان الاصيل ما يكاد يتفتح حتى يذبل ، ويهبط الليل ، فيعود سارتر الى فندقه . وكان يتعشى بالقرب من تجار جوالين . وكنت قد قلت لاهلي اننا كنا نعمل في كتاب سيكون نقدا للماركسية . وكنت آمل ان اتملقهم باثارة كرههم للشيوعية ، ولكنني لم اقنعهم قط . فبعد اربعة ايام من مجيء سارتر ، رأيتهم ينتصبون امام سياج الحقل حيث كنا جالسين . واقتربوا . وكان يبدو على ابي انه حازم ، ولكنه مرتبك بعض الشيء تحت قبعته المصفرة . وكان سارتر يرتدي في هذا اليوم قميصا ازهر اللون ، فقفز على قدميه والتحدي في عينيه . فطلب منه والدي بلطف ان يغادر البلد . فالناس يثرثرون وسلوكي السيء المكشوف يسيء الى سمعة ابنة عمي التي يسعون لزواجها. ورد سارتر بحيوية ولكن من دون ضجة كبيرة لانه كان مقررا الا يختصر رحلته ساعة واحدة .

واكتفينا بان نتواعد على اللقاء بمزيد من التخفي ، في بساتين الكستناء البعيدة . ولم يعد والدي الى محاولته ، وبقي سارتر اسبوعا اخر في بول دور . وفيما بعد اخذنا نتكاتب يوميا .

عندما قابلته ثانية ، في تشرين ، كنت قد صفيت ماضي (١). وانخرطت من دون تحفظ في قصتنا . وكان على سارتر ان يذهب قريبا للخدمة العسكرية . وفي انتظار ذلك كان في اجازة . وكان يسكن في شارع سان جان عند جديه شوبتزر ، وكنا نتلاقى في الصباح ، في اللكسمبورغ الرمادي والذهبي . ولم نكن نفترق الا في ساعة متأخرة جدا من الليل . كنا نمشي في باريس ، وكنا نتابع كلامنا ، عن انفسنا ، عن علاقتنا ، عن حياتنا ، وعن كتبنا القادمة ، وكنا نحدد النقاط . واليوم يبدو لي ان اهم ما كان يدور في هذه الاحاديث ، لم تكن الاشياء التي كنا نقولها بقدر ما كانت تلك التي كنا نعتبرها « مستجابة » ولم تكن حقا كذلك : لقد كنا مخدوعين في كل شيء ، ولكي نحدد انفسنا يجب ان نستعرض هذه الاخطاء لانها كانت تعبر عن واقع : واقع وضعنا .

ولقد سبق لي ان ذكرت ان سارتر كان يعيش ليكتب ، وكان قد قطع على نفسه عهدا بان يكون شاهدا لجميع الاشياء وان يتصرف بها على ضوء الضرورة . اما انا فقد كنت مجبرة على ان اعبر وعيي لروعة الحياة المتنوعة . وقد كان علي ان اكتب لانتزع وعيي من الزمن ومن العدم . وكانت هذه المهمات تفرض نفسها علينا بحتمية كانت تكفل لنا الانجاز . وكنا نتبنى التفاؤل « الكتبي » من دون ان ننص على ذلك لانفسنا : يجب عليك ، اذن تستطيع . وبالفعل ، كيف يتسنى للارادة ان تشك في نفسها حتى تتقرر تتأكد ؟ انه اذن شيء واحد ، ان يراد وان يعتقد . ثم اننا كنا وثقنا بالعالم وبانفسنا ، اما المجتمع ، في حالته الحاضرة ، فقد كنا ضده . ولكن هذا التضاد لم يكن فيه شيء من الشراسة . لقد كان يقتضي تفاؤلا متينا . كان ينبغي ان يصنع الانسان من جديد ، وهذا الصنع كان جزئيا عملنا . ولم نكن نتصور ان نشارك في الخلق بطريقة غير الكتب . فالاعمال العامة كانت تضجرنا.

ولكننا كنا نحسب ان الحوادث تجري حسب رغباتنا من دون ان يكون علينا ان نتدخل بها . وعلى هذه النقطة ، كنا ، في الخريف من عام ١٩٢٩ ، نشاطر اليسار الفرنسي كله في الارتياح . فالسلام كان يبدو انه مؤكد نهائيا وانتشار الحزب النازي في المانيا لم يكن يمثل سوى بداية حادث لا اهمية له . والاستعمار سيصفي امره في فترة وجيزة . فالحملة التي قام بها غاندي ، والانتفاضة الشيوعية في اندونيسيا كانا يضمنان السلام . والازمة الهائلة الفريدة التي كانت تهز العالم الرأسمالي كانت تنبيء ان هذا المجتمع لن يصمد طويلا. وكان يبدو لنا اننا بدأنا نعيش العصر الذهبي الذي كان يشكل في نظرنا حقيقة التاريخ الخفية والتي كانت تكتفي بان تكشفه .

وكنا نجهل وزن الواقع على جميع مستوياته . ففي كل نشاط ، تتكشف حربة ما ، وخاصة في النشاط الفكري ، لانها تترك مجالا ضيقا للتكرار . ولقد عملنا كثيرا ومن دون هدنة . كان علينا ان نفهم

(١) رويت قصة هذه التصفية في « مذكرات فتاة رصينة »

سارتر وسيمون ده بوفوار : « ان تفاهمنا قائم ما دمنا على قيد الحياة»

وان نكتشف من جديد . وكان لنا من الحرية حدس عملي غير قابل للرفض . وخطأنا كان يكمن في اننا لم نحصرها في حدودها الدقيقة ولقد اخذ احدنا بالاخر على غرار حمامة « كانت » ، فان الريح التي تصمد لها ، بدل ان تعيق تحليقها ، تسندها . فالشيء الممنوح كان يبدو لنا كمادة لمجهوداتنا لا كتكييف لها . كنا نفكر باننا لا نتوقف على شيء. وهذا التكبر الروحاني كان مرجعه اولا الى عنف مشاريعنا . ومثله في ذلك مثل عمانا السياسي . ان من يكتب ويخلق لا يجرؤ قط على ان يقوم بهذه المغامرة اذا لم يكن يتصور انه سيد نفسه المطلق وسيد غاياته ووسائله ، وجرأتنا كانت لا تنفصل عن الاوهام التي كانت تسندها ، وكانت الظروف تيسرهما معا . ولم يكن هناك اي عائق خارجي يجبرنا على ان نندفع ضد انفسنا . كنا نريد ان نعرف ، وان نعبر . ووجدنا اننا منخرطان حتى الخناق في هذه الطريق وكانت حياتنا تحقق آمالنا بدقة شديدة حتى انه كان يبدو لنا اننا نحن اللذان اخترناها وكنا نتنبأ باننا سوف نخضعها دائما لغاياتنا . والخطر الذي كان يساعدنا كان يحجب عنا بؤس العالم . ومن جهة اخرى لم نكن في صميمنا نشعر بقيود تربطنا . لقد احتفظت بعلاقات طيبة مع اهلي ، ولكنهم فقدوا كل سلطة علي . ولم يعرف سارتر قط والده . ولم تكن امه ولا اولياؤه يجسدون في نظره القانون . وبمعنى اخر كان كلانا بلا عائلة ، وكنا قد صببنا هذا الوضع في مبدأ . وكنا قد تشجعنا بعقلانية ديكارت التي نقلها الينا « ألن » والتي اعتنقناها بالذات لانها تناسبنا . ولم يكن هنالك اي وسواس ، ولا اي احترام ، ولا اية ملازمة عاطفية تمنعنا ان نتخذ قراراتنا على ضوء العقل ورغباتنا . ولم نكن نرى في انفسنا شيئا من الكثافة او الاضطراب . كنا نعتقد اننا كنا وعيا مجردا وارادة صافية . وقد قوى هذا الاعتقاد الحماسة التي كنا نرصدها للمستقبل. ولم نكن مستعبدين لاية مصلحة مجددة ما دام الحاضر والماضي ينبغي ان يتجاوزا نفسيهما بلا انقطاع . ولم نكن نتردد في ان نحاكم جميع الأشياء ونحاكم نفسينا كلما كانت الظروف تدعونا لذلك . كنا ننتقد ذاتنا . وكنا ندينها بيسر لان كل تبديل كان يبدو لنا تقدما . ولما كان جهلنا يخفي عنا معظم المشكلات التي كان من الواجب ان تقلقنا، فقد كنا نكتفي بهذه المراجعات وكنا نعتبر اننا جسوران .

كنا نمشي طريقنا من دون اكراه ، ومن غير عقبة ولا ارتباك ولا خوف، ولكن كيف كان يمكننا الا نعثر على الاقل بحواجز ؟ ذلك ان جيوبنا كانت في الحقيقة مسطحة جدا . كنت اربح معيشتي بتقتير . وكان سارتر يصرف من ارث صغير ورثه من جدته لابيه . كانت المخازن تطفح باشياء ممنوعة . وكانت امكنة الترف مسدودة في وجهينا . وكنا نواجه هذه الممنوعات باللامبالاة وحتى بالاحتقار . ولم نكن من النساك على الاطلاق . اما اليوم فقد كانت الاشياء التي في متناول يدي والتي كنت المسها خصوصا هي التي تحمل ثقل الواقع ، وكان سارتر شبيها لي في ذلك : وكنت استسلم لرغباتي واهوائي ، حتى لم يعد في ما افرط به في رغبات عابثة . فلماذا ترانا نتأسف لعدم ركوبنا سيارة في الوقت الذي كنا نقوم ـ ونحن نتنزه على قدمينا ، على طول بحيرة سان مارتان او على محطات بيرسي ـ باكتشافات كثيرة ؟ وعندما كنا نأكل في غرفتي خبزا وكبدة « ماري » الدسمة ، وعندما كنا نتعشى في مطعم دوموري الذي كان سارتر يحب رائحة بيرته الثقيلة وكرنبه المخمر ، لم نكن نشعر اننا محرومان من شيء . وفي المساء ، في «الفلستف» و «الكوليجين» كنا نشرب الوانا كثيرة من الخمر الرخيص . وكنت احب كثيرا نبيذ

العسل الفيكنس وكوكتيل المشمش الذي كان من خصوصيات « بيـــك دوغاز » بشارع مونبارناس ، فماذا كان يستطيع ان يقدم لنا مقهى ريتز اكثر من ذلك ؟ لقد كانت لنا اعيادنا . وذات مساء في الفيكنس، اكلت دجاجة عنبية بينما كانت جوقة على مدرج تعزف لحنا شائعا ، وكنت اعلم ان هذه المأدبة لم تكن لتبهرني لو لم تكن فريدة ، وحتى مواردنـــا المتواضعة ، كانت في خدمة سعادتي . ثم اليست المتعة المباشرة هـــي التي نبحث عنها في الاشياء الثمينة ؟ انها تساعد على ان تكون واسطة مع الاخر . وسحرها انها يضفيه عليها سحرة اخرون . وبالنظـــر الى تربيتنا القاسية وصرامة التزامنا الفكري ، كان رواد الفنـــادق الفخمة والرجال الذين يرتدون اللباس الاسباني والنساء ذوات الفـــرو والدوقات واصحاب اللايين لايفرضون انفسهم علينا . بل اننا كنا نعتبر هذا العالم الجديد ـ الذي كان يستغل عهدا كنا نشجبه ـ تفلا للارض. كنت احس تجاه هؤلاء جميعا بشفقة ساخرة . وعندما كنت امر امـــام ابواب فوكس او ماكسيمس التي لايمكن اجتيازها ، كنت اقول لنفســي ان المبعدين هم اولئك البتورون عن المجموع ، المنفيون في ترفهـــم وانانيتهم . وفي العموم لم يكونوا موجودين بالنسبة لي . فمميزاتهم وترفهم لم تكن تنقصني اكثر مما كانت السينما والراديو ينقصان اليونانيين في القرن الخامس .

ولكننا لم نكن نثور ، لاننا كنا نعلم ان الاشخاص المعتبرين لم يكـــن عندهم شيء ليعلمونا اياه . وفسادهم الفخم لم يكن يغطي الا فراغا .

لم يكن شيء اذا ليحدنا ، ولا شيء يستعبدنا . فعلاقاتنا بالعالم ، كنا نحن اللذين نخلقها . والحرية كانت جوهرنا بالذات وكنا نمارسها يومـــا تلو الاخر بنشاط كان يحتل مكانا كبيرا في حياتنا : التسلية . وكـــان معظم الازواج الجدد يموضون باللعب والاساطير فقر ماضيهم المشترك . وكنا نركض اليهم باندفاع متزايد بمقدار مزاجنا النشيط وعيشنا الموقت في البطالة وسواء كانت اختراعاتنا مهازل او تقليدا او امتالا ، فقد كـــان لها دورها المحدد . كانت تحمينا من روح الوقار هذه التي كنا نرفضها بالقوة نفسها التي كان يرفضها نيتشه ولاسباب متشابهة. ولقد كانت تخفف العالم اذ تلقيه في الخيالي وتتيح لنا ان نبقيه على مسافة منـــا .

ومن بيننا نحن الاثنين كان سارتر اكثرنا غنى . كان يؤلف اغانـــي شعبية واغاني للاطفال وقصائد هجاء وقصائد غزلية وخرافات سريعة وجميع انواع القصائد السريعة . واحيانا كان يغنيها على انغام شخصية ولم يكن يحتقر لا الجناس ولا الاشياء التقريبية . كان يتسلى بالجناس وبترداد الحروف في جملة واحدة . لقد كانت طريقة لتعود على اللكمات ويستغلها وفي الوقت نفسه يزيح عنها ثقلها اليومي . وكان قد استعار من « سينج » خرافة « المهرج » التائه الابدي الذي كان يقنع بقصص جميلة خيالية تفاهة الحياة .

وكانت صحتنا قوية ، وكانت لدينا استعدادات مرحة . ولكنني كنت لا اطيق المعاكسات . وكان وجهي يتغير ، وكنت انغلق على نفسي واحرد، وكان سارتر ينسب لي شخصية مزدوجة . ففي الاوقات العادية كنت القندس ، ولكن في بعض الاحيان كان هذا الحيوان يتنازل عن مكانـــه لمرأة شابة مغيظة بعض الشيء : الانسة بوفوار . وكان سارتر يحيـــك حول هذا الموضوع تنوعات كانت تنتهي دائما بان تسرني . اما هو ، فقد كان يتفق له غالبا ـ في الصباح عندما يكون الضباب كثيفا في رأسه، او عندما تدفعه الظروف الى الخمول ـ ان ينصب عليه الاحساس بعدم اللزوم ، فكان يتراكم على نفسه كانما كان يريد ان يحد من سيطرته ، وكان في هذه الحالة يشبه فيل البحر الذي كنا قد شاهدناه في حديقة الحيوانات والذي كان الله قد فتت نفسنا ، وكان حارس قد القى فـــي خرطومه سطلا مليئا بالسمك الصغير ، ثم قفز على بطنه ، واذ اكتسحته هذه السمكات الصغيرات ، رفع فيل البحر نحو السماء عينيه الصغيرتين والتائهتين وكان يخيل ان هذه الجثة الضخمة من اللحم كانت تحـــاول من خلال هذا الثقب ، ان تحول نفسها الى ابتهال . ولكن حتى هـــذه المضغة من الكلام كانت ممنوعة عليه . وكان الوحش يتثاءب ، وكانت دموع تسيل على جلده الزيتي . وكان يهدهد رأسه ثم استرخى منهزما .وعندما كان الحزن يجلل وجه سارتر ، كنا نزعم ان روح فيل البحر البائسة قد حلت فيه . وكان يتم هذا التغيير بان يرفع عينيه الى السماء ، ويتثاءب ويبتهل من دون كلام . وكان هذا التمثيل يوقظ بهجته . وهكذا كانت امزجتنا لا تبدو لنا وكأنها قدر تعززه اجسادنا، ولكن كأقنعة نرتديها بدافع الفساد ونخلعها عن انفسنا بارادتنا . وفي فترة صبانا كله ، وحتى مابعده ، كنا نندفع الى الدراما ـ البسيكولوجية المقتضبة كلما كان علينا ان نواجه مواقف بغيضة او صعبة ، كنا نبد لها وكنا ندفعها الى حدها الاقصى وكنا نهزأ بها وكنا نستثمرها طولا وعرضا وكان هذا يساعدنا كثيرا على ان نسيطر عليها .

وبهذه الطرق كنا نأخذ وضعنا الاقتصادي واذ التقينا في باريس ، حتى قبل ان نحدد علاقاتنا ، منحناها على الفور اسما : هذا زواج لايشرك فيه الرجل امرأته بحقوقه .. وكنا نملك هوية مزدوجة ، فقد كنا عادة موظفين غير غنيين ، ومن دون اطماع ومكتفيين بالقليل . وكنت احيانـــا اعتني بزينتي ، فنذهب الى دار للسينما في الشنزليزيه او الى مرقص الكوبول ، وكنا انئذ صاحبي ملياردات اميركيين . ولم يكن المقصود مـــن ذلك اطلاقا تمثيلة هيستيرية ، غايتها ان تقنعنا لساعات اننا كنا نذوق ملذات الموسرين ، ولكن ذلك كان يعني تقليدا يؤكد احتقارنا للحيـــاة الباذخة ، وكانت حفلاتنا المتواضعة تملأنا رضى ، ولم تكن الثروة تستطيع شيئا بالنسبة لنا : كنا نطالب بوضعنا ، ولكننا كنا في الوقت نفسه ، نقصد ان نهرب منه ، فالبرجوازيان الفقيران اللذان كناهما لم نكنهمـــا حقا . ففي الوقت الذي كنا نمثل دورهما كنا نتميز عنهما .

ولقد رأينا كيف كنت اعتبر اعمالي الروتينية ومن بينها مهنتي فـــي التدريس كأنها تنكر ، فالتمثيل اذ يبعد حياتنا عن الواقع ، ينتهي بـــان يقنعنا بانه لايحتوينا ، اننا لانتنسب الى اي مكان ولا اي بلد ، ولا ايـــة طبقة ولا اية مهنة ولا اي جيل ، فحقيقتنا كانت خارج ذلك . كانت ترتسم في الازل ، والمستقبل هو الذي سوف يكشفها : لقد كنا كاتبين ، واي تحديد اخر لم يكن الا زيفا ، وكنا نفكر ان نتبع قاعدة الرواقيين القدامى الذين راهنوا بكل شيء على الحرية ، ولما كنا بالجسد والروح نلتـــزم العمل الذي كان يتوقف علينا ، فاننا كنا نتحرر من جميع الاشياء التـــى لم تكن تتوقف عليه ، ولكننا لم نكن لنزهد فيها ، بل كنا اشد فهما مـــن ان نتقبل ذلك ، غير اننا كنا نضعها بين هلالين . هذه اللامبالاة ، وهـــذا الاهمال وهذا الاستعداد الذي كانت تسمح لنا به الظروف ، كان مـــن المغري ان نخلطها مع حرية طاغية ، ومن اجل ان نقضي على هذه الخديعة، كان علينا ان نتخذ مسافات تجاه انفسنا : ولكننا لم نكن لنملك الوسائل لذلك ولا الرغبة على الاطلاق .

وكان من الممكن لنظامين ان يثيرانا : الماركسية وعلم التحليل النفسي. ولم نكن نعرفهما الا معرفة اجمالية فجة ، واني لاتذكر المعركة الحادة جدا في « البلزار » بين سارتر وبوليتزر الذي كان يود ان يرد سارتر الى صفته « البرجوازي الصغير » ، ولم يكن سارتر يرفض الصفة ، ولكنه كان يصر على انها لاتكفي لتحدد مواقفه . وكان يطرح مشكلة المفكـــر الشائكة ، المنحدر من البورجوازية ، القادر ، في نظر ماركس نفسه،على ان يتـــجاوز وجهـــة نظـــر طبقته . فـــي ايـــة ظروف ؟ وكيف ؟ ولماذا ؟ وكان شعر بوليتزر الاحمـــر يشتعـــل ، كان يتكلـــم بتدفـــق ولكنه لم يتوصل الى اقناع سارتر ، ومهما يكن من امر فقد كان بوســـع سارتر ان يستمر في منح الحرية حظها مادام لايزال يعتقد بها الان ،ولكن تحليلا جادا كان يمكن ان يقلص الفكرة التي كنا نكونها عنهما ، فعـــدم اكتراثنا بالمال كان ترفا يمكن ان نمنحه لنفسنا لاننا كنا نملك منه مافيـــه الكفاية بحيث لم نكن نشكو العوز ولم نكن مقسورين على القيام باشغـــال شاقة ، ونحن مدينان بتفتحنا الفكري لثقافة ومشاريع هي في متناول طبقتنا وحدها . لقد كان وضعنا كمثقفين من مثقفي البورجوازيين الصغار هو

الذي يدفعنا الى الاعتقاد باننا غير مقيدين بشرط .

فلماذا هذا البذخ بالذات بدلا من سواه ؟ لماذا بقينا متيقظين بدلا من ان ننام في اليقين ؟ لقد كان باستطاعة علم النفس التحليلي ان يمنحنا اجوبة لو اننا استشرناه . لقد بدأ هذا العلم يغزو فرنسا وكانت بعض مظاهره تهمنا ، ففي الامراض النفسية ـ العقلية كانت « غدة جورج دوماس » الموحدة تبدو لنا ـ كما تبدو لمعظم اصدقائنا ـ غير مقبولة. كنا نتقبل برضى الفكرة القائلة بان الامراض العقلية ، والحالات العصبية واعراضهما ذات تفسير يرتد الى طفولة المصاب : ولكننا كنا نتوقف هنا، اذ كنا نرفض العلم النفسي التحليلي كمنهج لسبر اغوار الانسان الطبيعي، لم نكن قد قرأنا لفرويد سوى كتبه في « تفسير الاحلام » و « الامراض العقلية للحياة اليومية » وكنا قد ادركنا الحرف بدل الروح ، فقد اجفلتنا هذه الكتب برموزها العقائدية وبتداعي الافكار الذي كانت تتميز بها . وكانت جنسية فرويد الجامعة تبدو لنا هذيانا ، وكانت تصدم بروتستانتيتنا . وكنا نرى ان نظرية فرويد ، بسبب الدور الذي تسنده الى اللاوعي ، وبصلابة تفسيراتها الالية ، كانت تسحق الحرية الانسانية : ولم يكن من احد يرشدنا الى توفيق ممكن ، ولم يكن باستطاعتنا ان نكتشفه . وبقينا مجمدين في موقفنا العقلاني والارادي ، وكنا نفكر انه لدى الانسان الطبيعي تنتصر الحرية على عواقب الجروح والتعقيدات والذكريات والتأثيرات ، واذ كنا طليقين عاطفيا من طفولتنا ، فقد بقينا نجهل طويلا ان هذه اللامبالاة تفسر بطفولتنا نفسها .

واذ كانت الماركسية وعلم النفس التحليلي لم يؤثرا فينا الا قليلا ،بينما كان عدد كبير من الشبان يتبنونهما ، فليس ذلك فقط لاننا لم نكن لدينا عنهما الا مبادىء اولية ، ولكن لاننا كنا لانرغب في ان ننظر الى انفسنا، من بعيد ، بعيون اجنبية : كان يهمنا اولا ان نتطابق مع انفسنا .

وبدلا من ان نرسم نظريا حدودا لحريتنا ، كنا نهتم عمليا بان نحميها لانها كانت في خطر .

وحول هذه النقطة ، كان ثمة فرق كبير بين سارتر وبيني . وكان يبدو لي اعجوبة ان انتزع نفسي من ماضي ، وان اكتفي بنفسي وان اقرر شؤوني . وكنت قد امتلكت مرة واحدة والى الابد استقلالي الذاتي. ولن يكون ثمة شيء ليسلبني اياه . اما سارتر فلم يكن يدخل الا مرحلة من وجوده كرجل كان قد تنبأ بها منذ زمن طويل باشمئزاز وكان في بدء فقدانه لا مسؤولية صباه الاول . كان يدخل الى عالم البالغين البغيض ، وكانت حريته مهددة لاضطراره اولا الى ان يقضي ثمانية عشر شهرا في الحياة العسكرية . ثم ان التدريس كان يترصده . وكان قد وجد مهربا له اذ كانوا يطلبون الى اليابان قارئا للفرنسية ، وكان قد وضع طلبه لتشرين ١٩٣١ ، وكان ينوي ان يبقى هنالك سنتين ، وكان يأمل ان يتعرف الى غربات جديدة ، وكان على الكاتب وراوي القصص بالنسبة له أن يشبه « مهرج السينج » فهو لايتوقف في النهاية في اي مكان ، او بالقرب من اي شخص . ولم يكن سارتر يؤمن بوحدة الزواج، وكان يسر بعشرة النساء اللواتي يراهن اقل سخرية من الرجال ، ولم يكن يقر ، وهو في الثالثة والعشرين من عمره ، ان يرفض الى الابد تنوعهن الجذاب .. كان يشرح لي قائلا وهو يستعمل تعبيرا يعز عليه ، « ان العلاقة بيننا تعني حبا ضروريا ، وينبغي ايضا ان نعرف حبا غير لازم » ولقد كنا من نوع واحد ، وكان تفاهمنا سيظل قائما مادمنا على قيد الحياة ، ولا يمكن لاي غنى موقت ناتج عن لقاءات مع كائنات مختلفة ان يعوض عنه ، وكيف كان بامكاننا ان نتجاهل بوعي سلم الاندهاشات والحسرات والحنين والمسرات التي كنا مؤهلين للاحساس بها ؟ كنا نفكر بذلك طويلا اثناء نزهاتنا . وذات مساء ذهبنا مع نيزان وزوجته لنشاهد « العاصفة على اسيا » في الشنزليزه . وبعد ان فارقناهما نزلنا مشيا الى حدائق « الكاروسيل » ، وجلسنا على مقعد حجري مستندين الى احد اجنحة اللوفر ، وكان ثمة درابزين منفصل عن الحائط بمسافة ضيقة : وفي هذا القفص كان قط يموء ، كيف استطاع ان ينزلق الى هنا؟ لقد كان اكبر حجما من ان يستطيع الخروج منه. وكان المساء يهبط حين وتقدمت امرأة وبيدها كيس من الورق فاخرجت منه فضلات اطعمت بها القط وهي تداعبه برفق . وفي هذه اللحظة اقترح سارتر : « لنوقع عقدا لسنتين » ، وكان العقد يمكنني من ان اتدبر امري لابقى في باريس خلال هاتين السنتين فنقضيهما في صميمية شديدة الى ابعد مايمكن ، وبعد ذلك كان ينصحني بان اطلب انا ايضا وظيفة في الخارج بحيث نبقى منفصلين سنتين او ثلاثا . ثم نلتقي في مكان ما على الارض ، في اثينا مثلا ، لنستانف في فترة تطول او تقصر حياة مشتركة بعض الشيء، فابدا لن نصبح غريبين احدنا عن الاخر ، وابدا لن ينادي احدنا الاخر عبثا، ولن يكون ثمة ما يفوق هذا التحالف قيمة، على انه ينبغي الا ينحدر الى قسر او عادة . وكان علينا بأي ثمن ان نحفظ من هذا الفساد . ورضيت ، والفراق الذي كان يواجهه سارتر كان من دون شك يرعبني ولكنه كان ينمحي في الابعاد ، وكنت قد اتخذت لنفسي قاعدة بان لااغرق نفسي بالهموم المسبقة . فكلما كان الخوف يلم بي كنت اعتبره ضعفا وكنت اجهد بان احده ، وكان يعينني في ذلك ماكنت احسه من صلابة في كلمات سارتر ، فالمشروع معه ، ليس قط ثرثرة مشكوكا بقيمتها بل لحظة من الحقيقة . فان كان يقول لي ذات يوم « اللقاء بعد اثنين وعشرين شهرا بالضبط في الساعة السابعة عشرة عند الاكروبول تأكدت اني سأجده عند الاكروبول في الساعة السابعة عشرة بالضبط ، بعد اثنين وعشرين شهرا . وبصورة عامة ، فان أية مصيبة لن تلحقني بسببه ابدا ، الا اذا مات قبلي .

ترجمة عايدة مطرجي ادريس

مهمة غير عادية

أبو المعاطي أبو النجا